

فصل سادس

سيرة سيد الوجود

من دون مقدمات كبيرة أفتح لكم الفصل الذي أعلن فيه (أدم) عن رغبته في إطلاق سراح (هاجر)! انا تقريبا قد تكهنت بهذا. صاحبي ما تغير.. رغم عزلة الأعوام السبعة، فإن عالم حوريته أعاده من جديد إلى نبي يسعى إلى تغيير التاريخ وتحسين سنة الوجود. راح ينظر إلى (امرأة القارورة) كسجينة تعيش عبودية خلودها، لا تعرف من الوجود غير ملذات عشاقها وعذاباتهم، تولد بمولدهم وتموت بموتهم، محرومة من تذوق الحياة بأوجاعها وأفراحها.

ما كف (أدم) عن مقارعة الزمن من أجل تخليص حوريته. لم افهم لماذا كلما رأى جنينه يكبر في بطن زوجته، اشتد هوسه بتخليص حوريته. كان مقتنعا بقراره كأنما (هاجر) قد امضت آلاف اعوامها وهي تنتظر يوم يأتي هو ليخلصها من خلودها.. كأنه يبتغي إنقاذها من الموت. لعله في حقيقته كان يرغب في ان يجعلها فانية مثله. إنه مثل جميع المنقذين، دون وعي منهم يخفون بذرات أنانية في اعماق إنسانية صادقة وطاهرة. في الليالي التي أمضيتها مع (هاجر)، كنت أحاول إقناعها برفض رغبة (أدم)، لكن حماسته قد نفذت بعيداً في أغوارها. جعلها تنكب على قراءة الكتب وتتابع أخبار العالم وأحداثه. مع الأيام راحت حكاياتها تمتلئ أكثر وأكثر بأسئلة ورغبات. وصار حلمها أن تعيش يوماً كامراًة عصرية صورتها لها كتب وأفلام وصحف وأحاديث (أدم). من أجل إرضاء عشيقها قبلت أن تضحي بخمسة آلاف عام من ذكريات العشق وملذات آلاف أعوام قادمة؟ علمها (أدم) أن تغيظني بقولها إنني ليس حياً بها أريد بقاءها خالدة في قارورتها، إنما لكي أمارس سلطتي عليها وامتتع بملذاتها!

اني على يقين بأن (أدم) سيتأسف على قراره هذا. سيفقد الى الأبد متعة الشهوة الخالدة التي تمنحه اياه سيدته. صحيح ان حبها له سوف لن يتأثر، لكن عطاءها الجسدي سوف يختلف تماماً. ستحافظ على حرارتها واباحتها معه، غير انها ستكون فاقدة لطواعيتها القديمة وخضوعها الطبيعي لنزواته. سوف لن تكون تابعة له في ملذاته بعد ان تكون قد اصبحت إمراًة طبيعية خاضعة لقوانين الحياة ومتطلبات البدن والروح. ستتصاعد خيبته بها وهو يراها تستحيل الى إمراًة تتعب وتمرض وتحلم برجل يمنحها الأمان ويخفف عنها اوجاع الوحدة. سترفض دور العشيقة وتطالب بدور الزوجة. حينها سيفقد معها جنون المتعة وتلقائيتها. سيتوجب عليه ان يحترم كينونتها البدنية، يتباطأ أثناء الممارسة، يداعبها وقتاً ليهينها، وعليه ان يمارس بانتباه حتى لا ينتهي قبلها ويحرمها من ذروة النشوة. وعندما ينتهي، اياه ان ينسحب ليدخن سيكارته مثلما

يفعل معظم الرجال، بل عليه ان يبقى ملتصقاً بها ويداعبها لأن لذة المرأة لا تنتهي مع الذروة، بل تدوم وتنخفض بالتدريج.. نعم عليه وعليه وعليه..

لكني رغم ذلك وافقت على دعمه في مشروعه، لا إقتناعاً بل خشية على سلامة علاقتنا. اتفقنا على طرق المستحيل لتخليصها من سحر القارورة. فكرنا في إمكانية كشف أمرها للناس وطلب العون من المعنيين، غير أننا تخلينا عن الفكرة فوراً، إذ خشينا المخاطر: سينكب، مختصون وجراحون وسحرة وكيميائيون على إجراء تجاربهم وتحاليلهم على بدننا. ستتكاثر صحف ودور دعائية وازياء وسينما وأجهزة إعلام، جموع مغامرين ومكتشفين، ليصنعوا من (هاجر) رمزاً خالداً لأحلام خائبة. بلا شك انها ستتحول إلى مشكلة سياسية بين الدول المعنية بحقوق امتلاكها، حينها سنفقد حتى صلتنا بها.

قلنا لا. رحنا نجرب استشارة أصحاب الأمر من سحرة وروحانيين ومتصلعين بالتنجيم وعلوم ما وراء الطبيعة، من دون ان نكشف بالضبط تفاصيل معضلتنا. اتصلنا بمتفقيين من اتباع الطوائف الهندية - الآسيوية في (جنيف وباريس وبرلين ولندن) : بوذيون وهندوس وباغوانيون وغيرهم من الطوائف القديمة والجديدة. راح (آدم) يمضي وقته بمراسلة متصوفين إسلاميين، ويتصفح كتباً عربية قديمة تتحدث عن التصوف والسحر والطب. طالعنا كل ما وجدناه من كتب متعلقة بحضارات الشرق الأوسط القديمة واديان الشعوب السامية وقبائل الصحراء. اتصلنا بنسائك ورهبان سريان في الشام والعراق، وزرنا اديرة عديدة بين جبال الألب وجيرا. لا شيء.. دائماً لا شيء. نتيجة وحيدة خرجنا بها:

العودة إلى الصحراء. هناك نشأت المعضلة، وهناك يكمن حلها. حكماء الصحراء وحدهم يملكون سر القارورة. أي جزء يقصدون من هذه الصحارى الممتدة من اليمن حتى الشام ثم سيناء وصولاً إلى الصحراء الكبرى المشرفة على المحيط الأطلسي؟! امضينا ليالي بطولها، نخرج (هاجر) من قارورتها لتشاركنا حيرتنا. سخرنا منها في البدء عندما أشارت علينا بالاتصال بالشيخ الذي وضعها في القارورة. لكنها أقنعتنا وهي تقول انها متيقنة من خلوده :

"لا يمنح الخلود إلا من كان خالداً".

لكن أين يمكننا العثور على هذا الشيخ؟ (هاجر) كانت تجهل اسم الصحراء التي التقت فيها. ظروف تنقلها وترحالها، ما أتاحت لها تمييز وحفظ اسماء الصحارى والبوادي التي اجتازتها مع ملكها (تموزي) خلال عامين من البحث. كان يمكنها ان تصف لنا المكان وتتذكره بتفاصيله، ولكن دون معرفة الأسماء. تقول إن الجبل كان أحمر، صخوره ورماله تشع بألوان نحاس.

جمعنا لـ(هاجر) كل ما استطعنا تحصيله من كتب مصورة متعلقة بالصحارى العربية وبوادي شرق البحر المتوسط. كنا نمضي معها الساعات لتطلع على الصور وتتذكر الأماكن التي مرت بها. أولاً، تركزت الظنون على منطقة البتراء قرب خليج العقبة لأن الصخور الحمراء منتشرة فيها. لكن (هاجر) عرفت المنطقة

وتذكرت انها اجتازتها مع "تموزي" بعد أن التقوا بأحد نساكها، وانها عرفتها مرة اخرى مع احد احفادها بعد قرون طويلة.

بعد ليال من الجدل والاستقصاء توصلنا إلى نتيجة أكيدة هي ان المكان المطلوب هو صحراء سيناء: صخورها وجبالها حمراء، تربط بين آسيا وإفريقيا، وملتقى جميع قبائل وقوافل شعوب الصحراء. وهي منذ القدم الملجأ الطبيعي لنساك وزهاد أديان مصر والهلال الخصيب وجزيرة العرب. لم يبق لنا اختيار آخر سوى السفر إلى سيناء. خلال أسابيع بذلنا الجهود لتخطي مصاعب مالية وإدارية. تدبرنا التأشيرة والمال، وهياتنا خرائط ودراسات مختصة بسيناء.

* * *

في مدينة الإسماعيلية على قناة السويس، التقينا دليلاً (موسى)، أصله يعود إلى عشائر فلسطينية حافظت على مسيحية مفعمة بروحانية البادية. كان شاباً بوجه منحوت يمزج بين الملامح المصرية والشامية، حنطي البشرة بأنف دقيق وفك عريض بارز وعينان حادتان صغيرتان كعيني صقر. في الصباح كان (موسى) قد هياً لنا سيارة (بيك آب) ومتاع سفر مع أدوات مختلفة وخنجرين ومسدس. انطلق بنا متوغلاً في شمس زاحفة من اعماق الصحراء.

قبيل رحيلنا، بعيداً عن أنظار (موسى)، أخرجنا (امراة القارورة)، وهي بعد أن جالت انظارها في السماء أشارت إلى غيمة راحلة نحو جنوب شرق الصحراء، قالت إن تبغنا سنصل إلى شيخ الخلود.

سبعة أيام ونحن نجول تحت ظل غيمة تقودنا بين دروب وعرة وجبال صخرية وذئاب وعواصف رملية كانت تخرب خيمتنا وتطفئ نيراننا وتكسوننا بغبار أحمر. اجتزنا مدناً صغيرة وقوافل سائحة منذ القدم واديرة قبضية ومراكز عسكرية وتلالا وجبالا وسواحل ممتدة إلى سواحل وسواحل لا تنتهي.

عند انتشار أنوار الشفق كان ينتابنا إحساس ممزوج بشموخ وضآلة أمام مشهد اتحاد الأرض والسماء، ونحن اجئة ننبثق منهما. كم من أنبياء وحكماء صنع هذا الالتقاء؟ هذا السكون الذي يوحى بالعدم والبدائية، يستحيل مع صفير الريح إلى اناشيد تتغنى بالأزلية.

في تلك الليلة خيمنا في المكان الذي قادتنا إليه غيمتنا. كنا قريبين من (جبل موسى) وجبل (القديسة كاترين) حيث يستقر دير قبضي يقطنه رهبان وإله بدوي. كان التعب قد أنهكنا، وتفاقت حساسيات فيما بيننا. كنا قد اتبعنا نظام أن ينام اثنان ويبقى الثالث مع المسدس مستيقظاً للحراسة، ويتم التناوب كل ساعتين.

كانت نوبتي عند الساعة الحادية عشرة. رفيقاي كانا يغفوان بعد أن أمضينا امسية اسمعنا خلالها (موسى) حكاياته عن تواريخ وأماكن تتداخل بحرية لا تعرف حدوداً. عن (الأعور الدجال) الشيطان الذي يذبح المؤمنين ولا يقتله إلا عيسى. وعن قوم (ياجوج وماجوج) الذين سيهدمون سور الدنيا ويجتاحون

الأرض فسقا. أشار إلى الجبل الأحمر الذي نصبنا خيمتنا تحت ظلالة وقال إنه (جبل موسى)، من قمته كان النبي موسى يكلم الله. ومن أراد ان يستجيب الله لدعائه ليصعد إلى القمة يدعو ويستغفر. عندها خطف في السماء شهاب قدح وانطفاً. دلينا موسى استعاذ بالله ولعن الشيطان وقال إن الشهب هي نيران يرميها الملائكة على (إبليس) عند اقترابه من أبواب السماء.

* * *

كانت ساعتى تشير الى منتصف الليل، وانا جالس في السيارة. صاحباي كانا يهجعان خارج الخيمة على مبعدة خطوات. ثمة نسيم رقرق كان يبث الخدر ويجعلني انساب منخلبا في رؤى سماء زاخرة بنجوم متطايرة ومتوهجة كأسهم نارية في احتفال من الصمت. مشاهد متنوعة من ذكريات تمر في الخيال كشريط سينمائي من مقاطع لصقت بعبث.

من وراء الجبل ظهر القمر قريبا كأنه يستريح على القمة. على ضوئه الذي غمر الساحة رأيت نقطتين تلمعان من مسافة قريبة. فوق صخرة مدببة كانت هنالك افعى مرقطة طويلة ترفع رأسها وتثبت نحوي عينين براقنتين. رغم جفنتي وتقززي، فاني انسجمت مع احساس مبهم بالانجذاب. دون مشينتي امتدت يداي الى القارورة المخبأة في صندوق السيارة، ربطتها على بطني بينما اصبعي متوترة على زناد المسدس. وجدت نفسي اتبع افعى تزحف متسلقة سلاسل صخرية. بين حين وآخر كانت تتوقف وتلتفت نحوي بعينين قمريتين. سخرت من نفسي لأنى امام مشهد الافعى انتابني شعور لا يعبر عن تقزز او خوف، بل رثاء وإشتهاء وتهكم، إذ كان جسمها متماوجا يتلوى على صخور مبلولة بضوء شاحب، فتبدو تارة كطفل يزحف وتارة كفاتنة تتمايل!

لم ادرك كم مضى من الوقت عندما رأيتها تقف عند مدخل مغارة يتسرب منها وميض شموع. نظرتني وتسللت الى الداخل. كلما اقتربت كانت رائحة بخور تعبق. هواجس كثيرة تصارعت في رأسي: قاعدة عسكرية، مخبأ عصابة، مسكن زهاد؟ استنشقت عميقا الهواء ثم زفرت كأني بذلك استنشقت شجاعة وازفر خوفا. احكمت حولي رباط قارورتي وتشبثت بالمسدس، ثم ولجت الى الداخل..

وجدت نفسي فجأة اقف عند باحة واسعة. امامي مباشرة شيخ جالس كما لو كان في انتظاري. فتح عينيه ونظر الى بالفة طبيعية كأنه اعتاد رؤيتي. تسمرت مبهورا عندما تذكرت فجأة انه نفس الشيخ الذي زارنا اثناء احتضار والد (آدم)! اما المكان فقد ادشنني بالتطابق العجيب مع ذاكرتي عنه. سبق لي وإن تخيلته من خلال وصف (هاجر)، لكنه كان من شدة تماثله كأني قد عرفته ورأيتة من قبل. في وسط الباحة كان الشيخ مفترشا حصيرة ومتكنا على جذع سندية هامة، اغصانها مورقة تمتد في الانحاء المعتمة من

المغارة. كان يرتدي ثوبا ابيض فضفاضا ونظيفا، ويضع طاقيه بيضاء مزخرفة بثقوب على رأسه الاشيب. بدا وجهه اسمر بلحية وشعر فضي، كوجه إمام او نبي مرسوم على لوحة شعبية. كان متربعا في جلسته وشفاته تتحركان بتناغم مع تساقط حبات مسبحة سوداء تبرق بخضرة.

قلت :

- " السلام عليكم " ..

بينما يدي تجهد كي تخفي مسدسي تحت قميصي.

سمعت منه هممة مع سقوط خرزات مسبحته، وارتسمت خطوط علي محياه تشبه ابتسامة. عندما جلست قبالة ميزت في عينيه لونا عسليا صافيا يوحي بطفولة وخطر كتطواف على مياه.

لحظتها اتاني يقين عجيب بأن هنالك لغة وحيدة يمكنها ان تحاورني مع هذا الشيخ، لغة وجد وانعتاق من المحسوسات. ملامحه ونظراته وهينته كانت تنطق بلغة كونية خاطبت في مجاهل كينونتي. بلا صوت ولا مفردات كان حوارنا يدخل القلب مفعما بعتاب وحنان وتعنيف وسؤال.

عندما وضعت القارورة أمامه، استمرت حبات مسبحته متساقطة متناغمة مع أصوات مبهمه تصدر من بين شفثيه كتراتيل بدائية. لف مسبحته حول القارورة، وحملها بين كفيه، ونهض ماشياً بخطوات وئيدة. توغل في أعماق المغارة حتى غاب.

زحفت إلى الحصيرة، وجلست مكانه، واتكأت على جذع السنديانة. ليس هناك من أثر لحياة غير اوراق وكتب وصفائح طينية مصفوفة ومتناثرة على أرض وعلى رفوف صخرية : كتابات مسمارية على صفائح فخار، كتابات قبطية على اوراق بردي، كتابات آرامية وسريانية وعربية واغريقية ولاتينية على قطع جلد وقماش، كتب صفراء، اناجيل وتواراة وتلمود وقرآن، كتب حكمة وتصوف ودواوين شعر.

مع انسام الريح كانت اوراق متيبسة تتساقط من السنديانة وتتدرج إلى اعماق المغارة. كل ورقة كانت تحمل هيئة إنسان، جميع الأشكال والأعمار والأجناس. حالما تصفر ورقة وتتيبس، كان الإنسان فيها يحتضر وتنمحي صورته.

رحت ادور مبهوراً، ابحت بين الأغصان عن أوراق قد تحمل هيئة أناس أعرفهم. على غصن يمتد حتى مدخل المغارة، رأيت ورقتين وحيدتين تتدليان تحت ضوء القمر. إحداهما خضراء مغمورة بندى، وكانت تحمل هيئة (هاجر)، الأخرى نصف مصفرة وأصاب جفاف اطرافها، وكانت تحمل هيئة (آدم)! لكن اين ورقتي، لا ادري؟

حينها سرت في أوصالي قشعريرة من خدر لذيد، فاتكمشت على نفسي، واسبلت جفني، ورحت التحم بجذع السنديانة. مثل سائل ادوب واتسرب اليها عبر مساماتها وجذورها. انتشر بين اغصانها واوراقها. اين ورقتي.. ابحت عنها بلا جدوى. انقسم الى ملايين وملايين الذرات، انتشر في اللامنتهى، نور جليل يغمر

الوجود. متحرر كلياً من قيود المكان والزمان. خلال زمن لا ادري كم طال، قامت روعي بالطوفان عبر ملايين وملايين الأعوام والأميال حتى الجذور اللا وجودية للوجود.

* * *

إني الزمن السرمدى.. إني الكينونة المطلقة.. إني جمادى في لا وجود.. إني خلود الخلود...
إني الاندماج الكلى. إني درة أخلقها، وبها تتكامل خلقتي. متداخل مع أجزائي وذاتي في رحم دُرّتي :
نوري بظلامي، صلابتي بليونتي، وضوحى بغموضي. إني سكون ونسيان وغيبوبة شاملة. إني جمود وموت خارج حدود المكان والزمان. خلال حقب لا تحصى من لا حياة وأنا حبيس رحم دُرّتي. تنمو في حاجة غريبة إلى أن اكافح جمودي واندماجي. أقرف من نعومة ملمسي، وأختنق من صلابة أعماقي. حدودي الدرية تضيق علي وتكبت في رغبة غريبة لم أعرفها مسبقاً:

حركة وعريضة في وجود بلا حدود، وانطلاق في آفاق مجهولة. إني اكافح جمودي واندماجي، أتكور حول ذاتي وأكس حاجة متعاطمة إلى الحركة. في لحظة سأم كبرى يتصاعد في غضب مقدس. يتراكم في أعماقي كل ما في كينونتي من طاقة للتمرد وحاجة إلى الاعتناق. بصورة لا أتوقعها... أنفجر!! أنفجر بعنف يجعلني اتمزق اشلاء لا متناهية، حتى أحسب اني استحيل إلى نثار ازلي الانقسام، مصيري التلاشي في المجهول.

أنا الدرة المتوهجة، أتناثر إلى عدد هائل من الأجرام والأكوان والأفلاك، تتقاذف مني اشلاء وحمم جبارة، تحيل اللا وجود إلى احتفال ناري من حركة أزلية وأضواء خلاصة وانفجارات متعاقبة. اكتشف أني موجود، اني اتحرك وأتلذذ بتحسس تكويني، أتلاعب بذاتي وأعبث بأجزائي المتناثرة. أدور حول بعضي البعض، أتنافر وأتجاذب، أنطوي واتمدد، أتعاطى وأتلقى.

أنا اللذة، رعشة الوجود الشبقية الخلافة. اللذة، هي هاجسي في خلق ذاتي وصيرورتي وجوداً كلياً. اللذة حركة، تناغم اندماج وانفصام، اقتراب وتناء.. إنها وجود وحياة وانسجام اصداد. بالتوافق الأمثل بين الولوج والخروج، الانغلاق والانفتاح، تنبثق لذة قصوى وارتعاشة نشوى، فيتحقق الحب الأسمى والوجود الأكمل.

أفجر هذا الكوكب وأظفي نيران ذلك. أجعل بعضها يرتطم بآخر، وبعضها ينفصل عن بعض. أخبو شموسا وأشعل أخرى. اغيّر شكل وجودي الهلامي كيفما أشاء. أرصع جسدي بنجوم، وأزين وجهي بأقمار. أختار الليل لراحتي، وأتأمل صورتني في مرآة أعماقي. اما النهار فللعبى وممارسة سلطتي على أجزائي.

حُقب طويلة تمضي وأنا أزاول عبثي بذاتي، ولعبي مع مكنوناتي، بالتدريج تبدأ اللذة تضمر والسأم يسري فيّ وينمو. تكرر اللذة يبدد متعتي، ويُميت أنفاس اندهاشي. السأم نقيض اللذة، ينبثق من تكرر واختلال التناغم بين الاضداد. هو المغالاة في التقارب إلى حد الجمود والانقبار، وهو المغالاة في التباعد إلى حد الضياع والانتثار. إني في الإندماج أسأم، في الانفصام أسأم، ولذتي تكمن في انسجام ترددي بين الاثنين. أتمعن في حالي، وأشاهد مكنوناتي الكوكبية تخبو وتبرد، تتجمد وتتصالب وتستحيل إلى كرات ملونة. تدور حول نفسها وحول شمس تحتمي بلهيبها.

هناك كوكب يجلب انتباهي. ما الذي يشدني إليه؟ أ ألوان خلافة ام هيئة مغرية؟ لعله في الموضع الأهم من تكويني : الرأس..! كوكب الأرض هذا ينقذني من سأمي، يصير لي موضعاً خصباً لازدهار شهواتي، أحسه واداريه، أمارس عليه إبداعي وابتكاري، أنفخ فيه ريحي الخلافة، اسقيه مياه خصوبتي. اشق بحاراً وانهاراً، احفر اودية، وابني جبالات، اخلق أراض وأحيلها إلى صحارى صلعاء، وأجعل غابات تنمو في اراض اخرى.

أتولع بهذا الكوكب الأرضي. هو سلوتي ومبتغى لذتي. اداعب جباله الناهدة، أشم رائحة غاباته، ابلل روعي ببهاره وانهاره، وأتية بصحاريه الموحشة. عندما يهدني التعب أستبرد بمساحاته المتجمدة وأتركها تذوب وتتبخر لتصبح غيوماً انفخها في الأعلى.

إنه كوكب يمنحني لذة إدراك الجمال، ولذة أسمى وأشهى: إدراك الحياة وامتلاكها. اهنالك أمتع من مراقبة الحياة تنمو على الأرض؟ اشجار واعشاب وأسماك وحشرات، تتلاقح وتتوالد وتتكاثر ثم تهرم وتضمر وتموت.. انية روعة!

إنها لذة أن تبني وتهدم، ان تخلق وتميت، أن تمنح الحياة وتستلبها. ان تكون الها وشيطاننا بذات الوقت.. انها أعظم ملذات اللذة.. انها السلطة.. انها الوجود!!

أني ادرك وجودي من خلال ميلاد وفناء مخلوقاتي. لا اكتفي بهذا. أمضي إلى الامام في إبداعي وعبثي. اخلق حيوانات ذوات إحساس لكي تدرك ما أفعله بها. تفرح وتحزن، تتخاف وتتألم، تجوع وتبتهج بالشبع، والأهم من كل هذا أنها تحس الموت وتهابه. الحيتان والزواحف والكواسر والطيور، جميعها تحت سلطتي. مخلوقاتي التي تشعرنني بكرمي وشحي، بشفتي وطغياني. كما أشاء أحييها، وكما أشاء أميتها. إنها عبيد الوضيع وإبداعي العظيم.

كوكب الأرض اخلقه واكمل به خلقتي. خلاله أدرك ماهية كينونتي. إني جسم جبار: المجموعة الشمسية رأسي، والأرض دماغي ومأوى خيالي.. إنها مركز هواجسي وأحلامي وإدراك ملذاتي.. تطور الحياة على كوكب الأرض يعني تطور الخيال في رأسي. الكائنات الحية خلايا تفكير. جميع ما تقوم به النباتات والحيوانات هي صور يبتكرها خيالي.

قبل أن ينوجد الإنسان في رأسي، كان تفكيري في أرقى صوره ممثلاً بالحيوانات، وديعة ضعيفة ووحشية كاسرة. لذتي تتصاعد إلى أقصاها، عندما ما أتنتصت وأشاهد خلاياي الحيوانية تمارس غرائزها في رأسي : فحيح الحُبّ المتفجر وتأوهاتة، صرخات ضحايا الافتراس وفتك الوحوش الجائعة.

لكن الحيوانات تبدأ تأثير سأمي : تفرح وتحزن، تحب وتكره، تخاف وتجراً، لكنها لا تدرك من الوجود سوى البقعة التي تقطنها. تتوالد وتحيا ويلتهم بعضها البعض وتموت وتستحيل الى تراب، دون أن تفكر، حتى للحظة واحدة، انها جزء من وجود خالد ومطلق. وان ولادتها رغبتي، وحياتها خيالي، وموتها تعبي. السأم اللعين من جديد يتسلل كداء في كياني. لعلي سأنفجر مرة ثانية، أبحث عن مصير آخر ولذة جديدة. أخشى على نفسي من نفسي. أحاسيس السأم تتراكم وتتراكم طوال أزمان وأزمان، حتى انطلق فجأة بانفجارات متعاقبة : براكين زلازل وعواصف وطوفانات جبارة تحقق عن كوكب خيالي خلايا حيواناتي البليدة، مخلوقاتي التي تفرقني بعدم إدراكها لجبروتي. تصطبغ الأرض بدماء وحوشي. حتى البحار والسحب تغدو حمراء بدمي. أفرغ فيها عواطف كبت وأزمان سأم.

بالتدريج، غضبي يخبو، وانفجاراتي تخفت. تهدأ العواصف، وتنقش العتمة الحمراء. تعود البحار الى أحواضها والأنهار الى مجاريها. شمسي تسكب أشعة لاهبة على أطيان ارضي المعجونة بمخلوقاتي. بالتدريج تنبجس من بين الأطيان كائنات غريبة. كالفطر تنمو وتتمطى تحت الشمس مجففة نفسها. مع الوقت، تتصلب وتتخذ هيئة حيوانية هي من اجمل ما أرى. امارس لذتي بمراقبة مخلوقاتي الجديدة هذه. اعينها على النمو، وأضفي عليها تلاوين إبداعية: أحسن هذا الأصعب، وأصغر ذلك النهدي. أغير موضع الأذنين، وأصغر منخري الأنف. أطيل الحنك وانتف الشعر، وارتب العضوين ليسهل تلاقيهما واندماجهما...!

إنها مخلوقاتي الجديدة العظيمة، مصنوعة من انفجار حاجتي الى لذة أبدية لا تنضب.. من غضبي وخيبة أملي وتوقني الى جمال أمثل وانسجام مطلق. أجعلها تتمتع بأرقى خصال حيواناتي القديمة: وفاء كلب وخداع ثعلب، وحشية نمر ووداعة غزال، انقضاضة صقر وانسيابة حَمَام، تطفل جرثوم ونفع نحل، بلادة سمكة وذكاء قرد، فبح اخطبوط وفتنة حسان ... ثم أنفخ فيها ريحي الخلاقة لتصير:

إنسان!!

الانسان هو اكتمال خلقتي.. انه اروع ما في عبثي واعقل ما في جنوني..

انه الخلايا الأطور والأمثل في رأسي. مخلوق على صورتني، نموذج باهر لتكويني. أميزه عن جميع كائناتي. أضع فيه أعظم ما في خصالي " الخيال " .. إنها ملكة التفكير بما فوق المرئي والمحسوس، تذكر الماضي واكتساب الحاضر وتكهن المستقبل. والأهم من هذا، انه يدرك وجودي، يتذكره ويحلله ويتنبأ به، يهابني، ويشيد لي المعابد، ويقدم لي القرابين، ويؤلف عني أسراراً واسباطير. بأسمي ينشر الحب والأخوة، ويقدم العدل والحق، وبأسمي يعلن الحرب وينشر الخراب ويسفك الدماء ويمارس الطغيان.

إني للإنسان رمز الخير عندما يصنع خيراً، وإني له رمز الخير أيضاً عندما يقترب شراً. لذتي جنته، وسأمي جهنمه، ونزواتي هي شيطانه. بالإنسان أكمل خلقتي، وأبصر وجودي، وأصبح قادراً على سرد حكاياتي.

بالإنسان أجعل الكائن الحي يسمو ويرقى، يبتكر ويخلق ويعطي. بالإنسان أيضاً أستحيل انا إلى إنسان يحمل جوعاً أبدياً إلى المعرفة وتعرية المستور وإضاءة المُعتم. أمضي وجودي بين جواب وسؤال، يقين وشك، تقارب وتناء. بالشك والسؤال أخاف وأبتعد، وباليقين والجواب أتق وأندمج. جواب يقودني الى سؤال، وسؤال يقودني الى جواب. انها لذة المعرفة وحركتها السرمدية.

تتعظم قدرات خيالي وتنوع عوالمي. أمضي شغوفاً بخلق التاريخ، ولادة وموت، دول وشعوب وأديان. انتصارات وهجرات وثورات واكتشافات... جميعها خيال بخيال يدور في رأسي. جموع البشر لا تدرك ابداً حقيقة كونها شعوباً من الخلايا، تعيش نزوات وجودي، سأمها من سأمي ولذتها من لذتي، تحيا وتموت وتتجدد في مخيلتي.

سعادتي بمخلوقي الجديد ما تلبث أن تتصدع. لا يأتيني السأم وحده. بل يجلب معه طوفانا من اسئلة وشكوك تمس إيماني بتاريخ صيرورتي. معضلتي تنبثق وتنمو مع توغل الإنسان أكثر فأكثر في متهات الأسنلة والأجوبة. كلما تتراكم مكتشفاته، تتراكم شكوكه وشهوات تمرده على سلطتي، كأتباع ما ان يطلعوا بإفراط على اسرار سلطانهم وخفائاه حتى تتصاعد فيهم روح التآمر والخيانة.

ليتنى ما خلقته... يجعلني أفقد ثقتي بحقيقة كينونتي المطلقة. أأكون أنا حقا خالق الإنسان؟ إني أتساءل أحياناً كيف يتسنى لمخلوقي أن يخرج عن طاعتي إن كان حقا جزءاً من وجودي؟ أيتنكر عضو لباقي الجسد؟ أليس الإنسان ماهو سوى خيال في رأسي، وحياته اجمعها تدور في ذهني، وأفكاره انعكاس لأفكاري؟ إذن، المعضلة تكمن فيّ أنا... شكي في ذاتي أنا، يعبر عنه الإنسان بشك في وجودي انا!

أن الإنسان مخلوق على صورتي، يمتلك دماغاً فيه ما لا يحصى من خلايا الخيال، وهو مثلي يخلق عوالمه وشعوبه واحلامه.. يخلق في رأسه تاريخاً كاملاً يبدأ بعذابات انفصام وينمو في حركة سرمدية تبتغي حُباً واندماجاً. إذن هو كائن مطلق صغير يعيش في رأسي أنا المطلق الأكبر. إدراكي لهذا الأمر يقودني إلى اعتقاد غريب يهزني ويحطم فيّ يقيني بكمالي، ويبدد لذتي بجبروتي : إذا كان الإنسان بما يمتلكه من ثقة بذكائه وكماله وسموه على باقي المخلوقات، ما هو سوى خلية خيال في دماغي، وهو لا يدرك حقيقة هذه.. قد يخمنها او يتخيلها إلا انه أبداً لن يلمسها ويتيقن منها. إذن، كيف لي أن أتيقن من أنني لست مثل الإنسان؟ أيعقل أن أكون انا خلية كُبرى تائهة في وجود اعظم من إدراكي؟ ربما أنني لست سوى خلية خيال في رأس مُطلق اعظم وأجلّ مني بما يفوق قدرتي على إدراكه، وجميع مراحل وجودي حتى الآن ما هي سوى خيال في رأس الكائن المطلق الأكبر!

إذن من أنا...! ؟

أ أكون خلية خيال في رأس إنسان. الإنسان هو مُطلق الأكر وهو عبيدي. إني خالقه لأنني وجوده الكلي، وهو خالقي لأنني بعقله اكتشف وجودي.. إنه عقل الوجود وكيونته العليا ومركز خياله واسمى مراحل الانسجام والتناغم بين المتضادات : ذكورة واثوثة، فاعل ومنفعل! حكمة ومشاعر. الإنسان، لذة الوجود القصوى. بالارتعاشة تتحد بذرتا ذكره واثوته، وبالارتعاشة تنمو حياته. إني كلي... إني مطلق.

إني الحياة : شهوة الجسد للحركة والانطلاق في رحاب الطبيعة الأم.

إني الموت : شهوة الروح للتحرر من قيود الجسد والانطلاق في رحاب الوجود الاسمي.

إني الحب : شهوة شهوات واتحاد المذات وأمل الروح بتحقيق حريتها في حركة الحياة وحرارتها.

وجودي في انسجام حيرتي، في تضادي المتناغم بين إنسانيتي الفانية وكيونتي الخالدة. بين بدني الزائل وروحي السرمديّة.

لا تزال قبائل روعي وشعوبها تنطلق في أرجاء رأسي، تجتاح غابات وصحارى وانهار وبحاراً. آلاف من حالات ولادة وموت. تستقر روعي على ضفاف دجلة والفرات. تستقر وتتناسل وتبني السدود وتحفر السواقي وتشيّد المدن والمعابد والأبراج.. تزرع وتصنع وتحكي وتكتب وتخوض الحروب، وبالطين الاحمر تصنع تاريخها. تعيش طوفانات وطواعين واجتياحات جيوش غزاة.. ترحل شمالا وجنوبا إلى أنهار وصحارى وبحار وأهوار وجبال. تولد روعي مرات ومرات، وتموت روعي مرات ومرات. تسقط في هاوية سحيقة... تسقط وتسقط وتسقط حتى ترتطم!؟

* * *

وجدتني مبطوحاً على الأرض. كنت وحيداً يغمرني ضياء الشفق الأحمر. بدت السماء ملطخة بألوان وشتات غيوم كوجه امرأة متبرجة. انتبهت إلى صرخات بعيدة ترتج بين أرجاء الوادي، تنادي بأسمي. نهضت مرتعباً تفحصت جسمي بحثاً عن كسر أو جرح. كنت سالماً بثيابي ومسدسي، وقارورتي متكئة على صخرة وبجانبيها قارورة زجاجية لم اشاهدها من قبل!

كانت صرخات (آدم) و(موسى) الدليل تشق الوادي منادية بأسمي. منذ ساعة وهم يجولون الوادي بحثاً عني. أخفيت القارورة والقنينة في حقيبتني، وقمت إليهم. اختلفت عذراً امام الدليل عن عفوتي المباغثة جنب صخرة عند سفح الجبل. عندما اختليت بـ(آدم) وحكيت له ما جرى لي في ليلتي، لم يصدقني لولا رؤيته للقنينة. اطلعتة على ما اعتقد بأني عرفته من الشيخ، دون ان ادرك كيف ومتى قال لي ذلك:

- "من اجل إبطال سحر القارورة، بعد ان تخرج منها (هاجر)، تملأ القارورة بسائل القنينة وتغلق غطائها، فتحرر منها المرأة إلى الأبد. ذلك السائل هو إكسير خلود، من يشربه ستبتلعه القارورة من جديد ويصير مثلما كانت (هاجر)!"

هكذا إذن، كما ترون، أنهينا سفرتنا في (سيناء) وعدنا إلى (جنيف)، بعد ان امضينا ساعات الصباح الأولى نجول دون جدوى في أنحاء جبل موسى وجبل كاترين. اختفت المغارة ومعها غيمة رحلتنا. ليس هناك غير صخور حمراء. ليس من اثر غير بيضة افعى عثر عليها الدليل. وضعها في كيسه ليعمل منها تعويذة لطرد الشر وكسب الأحبة.